تفسير سورة العنكبوت

للعلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي

IMM EDUCATION

t

بسم الله الرحمن الرحيم

الحلقة الأولى

تفسير سورة العنكبوت

وهي مكية

{آلم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣)}

يخبر تعالى عن تمام حكمته، وأن حكمته لا تقتضي أن كل من قال إنه مؤمن وادعى لنفسه الإيمان أن يَبْقَوا في حالةٍ يَسْلَمون فيها من الفتن والمحن، ولا يَعْرِض لهم ما يشوِّش عليهم إيمانَهم وفروعَه، فإنهم لو كان الأمر كذلك، لم يتميز الصادق من الكاذب، والمحق من المبطل، ولكن سنته وعادته في الأولين وفي هذه الأمة: أن يبتليهم بالسَّرَّاء والضَّرَّاء، والعُسْر واليُسْر، والمَنْشَط والمَكْرَه، والغِنى والفقر، وإدالة الأعداء عليهم في بعض الأحيان، ومجاهدة الأعداء بالقول

والعمل، ونحوِ ذلك من الفتن التي تَرْجِع كلُّها إلى فتنة الشبهات المعارِضة للعقيدة، والشهوات المعارِضة للإرادة، فمن كان عند ورود الشبهات يثبت إيمانه ولا يتزلزل، ويدفعها بما معه من الحق، وعند ورود الشهوات الموجبة والداعية إلى المعاصي والذنوب، أو الصارفة عن ما أمر الله به ورسوله، يعمل بمقتضى الإيمان، ويجاهد شهوته، دل ذلك على صدق إيمانه وصحته.

ومن كان عند ورود الشبهات تؤثِّر في قلبه شكًّا وريبًا، وعند اعتراض الشهوات تَصْرِفه إلى المعاصي أو تُصْدِفه عن الواجبات، دلَّ ذلك على عدم صحة إيمانه وصدقه.

والناس في هذا المقام درجاتٌ لا يُحْصيها إلا الله، فمستقل ومستكثر، فنسأل الله تعالى أن يثبِّتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأن يثبِّت قلوبنا على دينه، فالابتلاء والامتحان للنفوس بمنزلة الكِيْر، يُخْرِج خَبَثَها وطَيِّبَها.

{أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٤)}

أي: أَحَسِبَ الذين هَمُّهم فِعْلُ السيئات وارتكاب الجنايات أن أعمالهم ستُهْمَل، وأن الله سيغفل عنهم، أو يفوتونه؟ فلذلك أقدموا عليها، وسَهُلَ عليهم عَمَلُها؟

{سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ}، أي: ساء حكمهم، فإنه حُكْمٌ جائرٌ، لتضمُّنه إنكارَ قدرة الله وحكمته، وأن لديهم قدرةً يمتنعون بها من عقاب الله، وهم أضعف شيء وأعجزه.

{مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٥) وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٦)}

يعني: يا أيها المُحِبُّ لربه، المشتاقُ لقربه ولقائه، المسارعُ في مرضاته: أبشر بقرب لقاء الحبيب، فإنه آتٍ، وكلُّ آتِ إنما هو قريب، فتزوَّدْ للقائه، وسِرْ نحوه، مستصحبًا الرَّجاء، مؤمِّلًا الوصولَ إليه، ولكن ما كلُّ مَن يدَّعِي يُعْطى بدعواه، ولا كلُّ مَن تمنَّى يُعْطى ما تمناه، فإن الله سميعٌ للأصوات، عليمٌ بالنيات، فمن كان صادقًا في ذلك أناله ما يرجو، ومن كان كاذبًا لم تنفعه دعواه، وهو العليم بمن يَصْلُح لحبه ومن لا يصلح.

{وَمَنْ جَاهَدَ} نفسَه وشيطانَه، وعدوَّه الكافر.

{فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ}، لأن نفعه راجعٌ إليه، وثمرته عائدة إليه، والله غني عن العالمين، لم يأمرهم بما أمرهم به لينتفع به، ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلًا عليهم.

وقد عُلم أن الأوامر والنواهي يحتاج المكلف فيها إلى جهاد، لأن نفسه تتثاقل بطبعها عن الخير، وشيطانَه ينهاه عنه، وعدوَّه الكافر يمنعه من إقامة دينه كما ينبغي، وكل هذا معارِضات تحتاج إلى

مجاهداتٍ وسعيٍ شديد.

{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٧)}

يعني أن الذين منَّ الله عليهم بالإيمان والعمل الصالح، سيكفِّر الله عنهم سيئاتهم، لأن الحسناتِ يُذْهِبْنَ السيئات.

{وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ}، وهي أعمال الخير، من واجبات ومستحَبَّات، فهي أحسن ما يعمل العبد، لأنه يعمل المباحاتِ أيضًا، وغيرَها.

{وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨)}

أي: وأَمَرْنا الإنسان ووصَّيناه بوالديه حُسْنًا، أي: ببرهما والإحسان إليهما، بالقول والعمل، وأن يحافظ على ذلك، ولا يَعُقَّهما ويُسِيءَ إليهما في قوله وعمله.

{وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ}، وليس لأحد علم بصحة الشرك بالله، وهذا تعظيمٌ لأمر الشرك.

{فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}، فأُجازِيكم بأعمالكم، فبَرُّوا والدَيْكم وقدِّموا طاعتهما إلا على طاعة الله ورسوله، فإنها مقدَّمة على كل شيء.

{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (٩)}

أي: مَن آمن بالله وعمل صالحًا، فإن الله وعده أن يُدْخله الجنة في جملة عباده الصالحين، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، كلٌّ على حَسَبِ درجته ومرتبته عند الله، فالإيمان الصحيح والعمل الصالح عنوانٌ على سعادة صاحبه، وأنه من أهل الرحمن، والصالحين من عباد الله تعالى.

❁ ❁ ❁

الحلقة الثانية

{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (١١)}

لما ذكر تعالى أنه لا بد أن يمتحن من ادَّعى الإيمان، لِيَظْهَر الصادق من الكاذب، بيَّن تعالى أن مِن الناس فريقًا لا صبر لهم على المحن، ولا ثبات لهم على بعض الزلازل، فقال:

{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ} بضرب، أو أخذ مال، أو تعيير، لِيَرْتَدَّ عن دينه، ولِيُرَاجِعَ الباطلَ:

{جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ}، أي: يجعلها صادَّةً له عن الإيمان والثبات عليه، كما أنَّ العذاب صادٌّ عما هو سببه.

{وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ}، لأنه موافقٌ للهوى، فهذا الصنف من الناس من الذين قال الله فيهم: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ

عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} [الحج: ١١].

{أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ} حيث أخبركم بهذا الفريق الذي حاله كما وُصف لكم، فتعرفون بذلك كمالَ علمه وسعة حكمته.

{وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ}، أي: فلذلك قَدَّرَ مِحَنًا وابتلاءً، لِيَظْهَرَ عِلْمُه فيهم، فيجازِيَهم بما ظهر منهم، لا بما يعلمه بمجرده، لأنهم قد يحتجون على الله أنهم لَوِ ابتُلُوا لَثَبَتُوا.

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٢) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣)}

يخبر تعالى عن افتراء الكفار ودعوتهم للمؤمنين إلى دينهم، وفي ضمن ذلك: تحذير المؤمنين من الاغترار بهم والوقوع في مكرهم، فقال:

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا}، فاتركوا دينكم أو بعضه، واتبعونا في ديننا، فإننا نَضْمَنُ لكم الأمر:

{وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ}، وهذا الأمر ليس بأيديهم، فلهذا قال:

{وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ}، لا قليلَ ولا كثيرَ. فهذا التحمُّل، ولو رضي به صاحبه، فإنه لا يفيد شيئًا، فإن الحق لله، والله تعالى لم يمكِّنِ العبدَ من التصرُّف في حقه إلا بأمره وحكمه، وحكمه: {أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} [النجم:٣٨].

ولما كان قوله: {وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ} قد يُتوهم منه أيضًا أنَّ الكفار الداعين إلى كفرهم، ونحوَهم ممن دعا إلى باطله، ليس عليهم إلا ذنبهم الذي ارتكبوه، دون الذنب الذي فعله

غيرهم، ولو كانوا متسبِّبين فيه، قال: محترزًا عن هذا الوهم:

{وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ}، أي: أثقالَ ذنوبهم التي عملوها.

{وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ}، وهي الذنوب التي بسببهم ومن جُرْأَتِهم، فالذنب الذي فعله التابع: لكلٍّ مِن التابع والمتبوع حِصَّتُه منه، هذا لأنه فعله وباشره، والمتبوع لأنه تسبَّب في فعله ودعا إليه، كما أن الحسنة إذا فعلها التابع له أَجْرُها بالمباشرة، وللداعي أَجْرُه بالتسبُّب.

{وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ} من الشر وتزيينه، وقولهم: {وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ}.

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١٤) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (١٥)}

يخبر تعالى عن حكمه وحكمته في عقوبة الأمم المكذبة، وأن الله أرسل عبده ورسوله نوحًا عليه الصلاة السلام إلى قومه، يدعوهم إلى التوحيد وإفراد الله بالعبادة، والنهي عن الأنداد والأصنام.

{فَلَبِثَ فِيهِمْ} نبيًّا داعيًا.

{أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا}، وهو لا يَنِي بدعوتهم، ولا يَفْتُر في نصحهم، يدعوهم ليلًا ونهارًا وسرًّا وجِهارًا، فلم يَرْشُدوا ولم يهتدوا، بل استمروا على كفرهم وطُغْيانهم، حتى دعا عليهم نبيُّهم نوحٌ عليه الصلاة والسلام، مع شدة صبره وحِلْمه واحتماله، فقال: {رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا} [نوح:٢٦].

{فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ}، أي: الماء الذي نزل من السماء بكثرة، ونَبَعَ من الأرض بشدة.

{وَهُمْ ظَالِمُونَ} مستحقون للعذاب.

{فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ} الذين ركبوا معه: أَهْلُه ومن آمن به.

{وَجَعَلْنَاهَا}، أي: السفينة، أو قصة نوح.

{آيَةً لِلْعَالَمِينَ} يعتبرون بها على أن من كذَّب الرسل، آخِرُ أمره الهلاك، وأن المؤمنين سيجعل الله لهم مِنْ كل هَمٍّ فَرَجًا، ومن كل ضيق مخرجًا.

وجعل الله أيضًا السفينة _ أي: جِنْسَها _ آيةً للعالَمين، يعتبرون بها رحمةَ ربِّهم الذي قيَّض لهم أسبابَها، ويسَّر لهم أَمْرَها، وجعلها تَحْمِلُهم وتحمل متاعَهم من محل إلى محل، ومن قُطْرٍ إلى قُطْرٍ.